القرآن في زمن المعرفة: خلود خطابه وإعجازه

م.م مهند سعدون عبد

العراق / جامعة ميسان / كلية التربية الأساسية / قسم التربية الإسلامية

muhanad.sadun@uomisan.edu.iq

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى تقديم قراءة تحليلية لموقع القرآن الكريم في واقع الإنسان المعاصر الذي يتسم بتزاحم المرجعيات وتنامي المعرفة بشكل فوضوي، وذلك من خلال بيان سر خلود الخطاب القرآني وصلاحيته لكل زمان، والكشف عن وجوه الإعجاز البياني في آية الكرسي بوصفها نموذجاً مكثفاً للبناء العقدي. ويعالج البحث إشكالية العلاقة بين "زمنية الضجيج المعرفي" و"خلود الخطاب القرآني"، محاولاً تجاوز هذا التناقض الظاهري بتأكيد أن الخلود يعني أن القرآن خطاب فوق الزمن، يخاطب الفطرة الثابتة، بينما "زمن الضجيج" ليس شرطاً لخلوده بل سياق يُختبر فيه هذا الخلود. اعتمد البحث المنهج التحليلي الموضوعي بالرجوع إلى التفاسير الإمامية وكتب البلاغة. وتؤكد النتائج أن استعادة الوظيفة الهدائية للقرآن تتطلب إحياء التدبر بوصفه ممارسة تفسيرية تردم الفجوة بين النص والواقع، وأن الإعجاز البياني في آية الكرسي يتجلى في عناصر لغوية وبلاغية دقيقة تثبت استحالة الإتيان بمثلها.

الكلمات المفتاحية :القرآن الكريم، الضجيج المعرفي، خلود الخطاب، الإعجاز البياني، آية الكرسي، التدبر.

Abstract:

This research aims to present an analytical reading of the Holy Quran's position within the reality of contemporary man, characterized by the crowding of references and the chaotic growth of knowledge. It does so by explaining the secret of the Quranic discourse's immortality and its continuous validity for all times, and revealing aspects of rhetorical miraculousness in the Verse of the Throne (Ayat al-Kursi) as a condensed model of doctrinal construction. The research addresses the problematic relationship between "the temporality of cognitive noise" and "the immortality of Quranic discourse," attempting to transcend this apparent contradiction by affirming that immortality means the Quran is a discourse above time, addressing

the constant human nature (fitrah), while the "age of noise" is not a condition for its immortality but a context in which this immortality is tested. The research adopted an objective analytical method by referring to Imami exegeses and books of rhetoric. The results confirm that restoring the Quran's guidance function requires reviving contemplation (tadabbur) as an interpretive practice that bridges the gap between the text and reality, and that the rhetorical miraculousness in Ayat al-Kursi is manifested in precise linguistic and rhetorical elements that prove the impossibility of producing anything similar.

Keywords: Holy Quran, cognitive noise, immortality of discourse, rhetorical miraculousness, Ayat al-Kursi, contemplation (tadabbur).

المقدمة:

يمثل القرآن الكريم في الوعي الإسلامي المصدر الأعلى للهداية، إذ لا يُنظر إليه بوصفه نصاً تعبدياً يُتلى فحسب، وإنما بوصفه خطاباً إلهياً يُراد به بناء الإنسان وتشكيل وعيه. وتكتسب الدراسات التي تعالج علاقة الإنسان بالقرآن أهمية خاصة في الظروف المعاصرة، ولا سيما في ظل ما يمكن تسميته بـ "الضجيج المعرفي"، حيث تتزاحم المعلومات وتتعدد المرجعيات، مما يؤدي إلى ارتباك في المعنى واضطراب في اليقين.

وقد أشار العلامة الطباطبائي إلى أن "كثرة الأقوال وتضاربها من غير حجة قاطعة توجب الحيرة وترك اليقين" (الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٤: ٢٧٧). وهذا هو عين ما يعانيه الإنسان المعاصر من شتات معرفي، وإن اختلفت الوسائط والأدوات.

وهنا يبرز السؤال المركزي الذي يحاول البحث الإجابة عنه: كيف يستطيع القرآن الكريم، بوصفه خطاباً خالداً، أن يتجاوز فوضى الضجيج المعرفي ويقدم للإنسان مرجعية ضابطة؟ وما العوامل التي تمنح هذا الخطاب خلوده؟ وكيف يتجلى الإعجاز البياني في نموذج مثل آية الكرسي؟ ولماذا يظل القرآن قادراً على إحداث أثر نفسي في النفوس رغم تغير العصور؟

وتكمن أهمية هذا البحث في كونه يحاول تقديم إجابات تحليلية لهذه الأسئلة، معتمداً على المنهج التحليلي الموضوعي، ومستنداً إلى التفاسير الإمامية بوصفها المرجع الأساسي في الكشف عن البنية الدلالية العميقة للنص.

أهداف البحث:

١. تعريف "الضجيج المعرفي" وبيان أثره على الوعي الإنساني، مع توضيح أن هذه الظاهرة ليست محصورة في عصرنا ولكنها اتخذت أبعاداً جديدة.

٢. تحليل عوامل خلود القرآن وصلاحيته لكل زمان، ومعالجة الإشكال الظاهري في الجمع بين "زمنية الضجيج" و"خلود الخطاب."

٣. دراسة مظاهر الإعجاز البياني في آية الكرسي من خلال الرجوع إلى كتب البلاغة والتفسير اللغوي.

٤. إبراز الأثر النفسي للتدبر القرآني في بناء الطمأنينة.

خطة البحث :يأتي البحث في: مقدمة، وتمهيد ، ثم أربعة مباحث رئيسية، وخاتمة تتضمن النتائج والتوصيات، ثم قائمة المصادر والمراجع.

التمهيد: المفاهيم الأساسية والضوابط المنهجية

المطلب الأول: مفهوم الضجيج المعرفي وتحليله

يقصد بالضجيج المعرفي في هذا البحث حالة التزاحم الشديد للمعلومات والأفكار داخل المجال العام، بحيث تتعدد مصادر الخطاب وتتناقض المرجعيات، فيتولد لدى الفرد شعور بالتشوش وضعف معيار التمييز بين الحقيقة والرأي.

وهذا لا يعني استخدام مصطلح "زمن الضجيج المعرفي" أن عصرنا هو الأول الذي يعرف ضجيجاً معرفياً، بل المقصود أن هذا العصر يتسم بأعلى درجات الكثافة المعرفية وأسرع وتيرة لتدفق المعلومات، مما يجعل أزمة التمييز أكثر حدة من أي عصر سابق. وقد أشار الشيخ محمد مهدي شمس الدين إلى أن "العصر الحاضر هو عصر الأيديولوجيات المتزاحمة، حيث يفقد الإنسان القدرة على الاختيار بين المرجعيات" (شمس الدين، المرجعية في الإسلام، ص ٨٨).

والفرق الجوهري بين ضجيج الماضي وضجيج الحاضر هو في الوسائط: فبينما كانت المعرفة في الماضي تأتي من مصادر محدودة (الكتب، العلماء، الرواة)، فإنها اليوم تأتي من آلاف القنوات الرقمية، مما يجعل عملية التصفية والتمييز أكثر تعقيداً. وهذا ما يجعل القرآن أكثر حاجة إليه اليوم من أي وقت مضى.

المطلب الثاني: مفهوم خلود الخطاب القرآني

لا يراد بالخلود في هذا السياق مجرد بقاء النص القرآني محفوظاً في المصحف، بل يراد به استمرار الفاعلية الهدائية؛ أي أن يبقى القرآن قادراً على إنتاج التوجيه وبناء الوعي عبر العصور، وأن يظل خطاباً صالحاً لمخاطبة الإنسان في كل زمان.

معالجة الإشكال الظاهري :قد يبدو للوهلة الأولى أن هناك تناقضاً بين القول بوجود "زمن الضجيج المعرفي" والقول بـ "خلود الخطاب القرآني". فإذا كان القرآن خالداً، فهو فوق الزمن، فكيف يُنسب إليه أنه خطاب موجه لهذا الزمن تحديداً؟

والجواب: إن خلود القرآن لا يعني أنه خطاب موجه لهذا الزمن فقط، بل يعني أنه خطاب فوق الزمن، يصلح لكل زمان لأنه يخاطب الفطرة الثابتة في الإنسان. وعليه، فإن "زمن الضجيج المعرفي" ليس شرطاً لخلوده، بل هو سياق يُختبر فيه هذا الخلود، أي مدى قدرة النص الخالد على تقديم الهداية في أصعب الظروف المعرفية. فالقرآن لم يُخلق لهذا الزمن، ولكنه يظل صالحاً له كما كان صالحاً لكل زمان قبله.

وقد أشار الشيخ الطوسي إلى أن القرآن معجز بدوامه وصلاحيته لما يحتاج الناس إليه إلى يوم القيامة (ينظر: الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ١: ٨). وهذا المعنى لا يجعل من القرآن خطاباً لزمانه فقط، بل خطاباً سرمدياً.

المطلب الثالث: مفهوم التدبر ووظيفته

التدبر في الاصطلاح القرآني هو الانتقال من ظاهر التلاوة إلى عمق المقصد، ومن قراءة النص إلى محاكاة النفس به، ومن السماع إلى الاستجابة. وقد ورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: "ألا لا خير في قراءة لا تدبر فيها، ألا لا خير في عبادة لا تفقه فيها" (الشريف الرضي، نهج البلاغة، الحكمة ٣٥٨، ص ٥١٢).

ويؤكد الفيض الكاشاني في تفسير الصافي على أن "إنما أنزل القرآن للتدبر والعمل، لا للتلاوة بغير فهم" (الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ١: ٥٤). وهذا يعني أن الغاية من إنزال القرآن هي تحقيق التدبر، وليس مجرد التلاوة الآلية.

المبحث الأول: القرآن في زمن الضجيج المعرفي (المرجعية والوظيفة)

المطلب الأول: الضجيج المعرفي بوصفه أزمة معنى

لم تعد مشكلة الإنسان المعاصر في ندرة المعرفة، بل في تراكم الخطابات وتزاحم الآراء بما يولد التشوش ويضعف معيار التمييز القيمي. وقد أشار الشيخ محمد مهدي شمس الدين إلى أن "العصر الحاضر هو عصر الأيديولوجيات المتزاحمة، حيث يفقد الإنسان القدرة على الاختيار بين المرجعيات" (شمس الدين، المرجعية في الإسلام، ص ٨٨).

ما يميز هذا الضجيج ليس مجرد وفرة المعلومات، بل انعدام النسق المعرفي المنظم الذي يمكن الفرد من بناء يقين مستقر. فالإنسان المعاصر يعيش في حالة من "الانفجار المعرفي" حيث تُقذف إليه آلاف الرسائل يومياً، دون أن يمتلك الأدوات الكافية لتصفيتها وترتيبها. وهذا هو موطن الحاجة إلى مرجعية عليا تعيد ترتيب الأولويات وتقدم معياراً ثابتاً للحق والباطل.

ويلاحظ الباحث أن هذا الضجيج المعرفي يختلف عن الأزمات المعرفية في العصور السابقة من حيث الكمية والسرعة. ففي العصور الإسلامية الكلاسيكية، كان التعدد المذهبي والفقهي موجوداً، لكنه كان محكوماً بضوابط وأطر معرفية واضحة، أما اليوم فقد انهارت كثير من هذه الأطر.

المطلب الثاني: القرآن مرجعية للهداية إلى الأقوم

قرر القرآن أنه "يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ" (الإسراء: ٩). وهذا إعلان صريح بأن القرآن يقدم الطريق الأقوم والأعدل والأصلح للبشرية. وقد تناول العلامة الطباطبائي في الميزان هذه الآية بالتحليل، فرأى أن "أقوم" صيغة تفضيل تدل على أن الهداية القرآنية تفوق كل هداية بشرية من حيث الاستقامة والعدل والصلاح (الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٣: ١٣٦).

ويضيف السيد أبو القاسم الخوئي في تفسيره البيان: "إن القرآن يهدي إلى الطريق الأقوم في العقيدة والعمل والأخلاق، ولا يوازيه أي نظام وضعي آخر" (الخوئي، البيان في تفسير القرآن، ص ٨٠). وهذا يعني أن النص القرآني يمتلك قدرة فائقة على تقويم اعوجاج المرجعيات البشرية التي تغذي الضجيج المعرفي.

إن جعل القرآن نفسه "مرجعية" ليس مجرد ادعاء، بل هو دعوة إلى وضع النص القرآني في موقع الحكم على سائر الخطابات. وفي زمن تداخل الحقائق مع الآراء، تصبح هذه المرجعية ضرورة وجودية، لأنها تقدم معياراً ثابتاً غير متغير في بحر من المتغيرات.

المطلب الثالث: أثر القرآن يتجاوز العقل إلى القلب

يمتلك القرآن قدرة فريدة على إعادة تشكيل الشعور الإنساني عبر بناء الهيبة والمعنى وإحياء البصيرة. وقد أشار السيد مكارم الشيرازي في تفسير الأمثل إلى أن القرآن "ليس معلومات جافة، بل هو نفحة إلهية تغير المزاج النفسي للإنسان" (مكارم الشيرازي، تفسير الأمثل، ١: ٣٠).

وهذا الأثر النوعي هو ما يميز الخطاب القرآني عن غيره من الخطابات الكثيفة في عصر المعلومات. فالمعلومات وحدها لا تصنع إنساناً، بل تحتاج إلى قوة تحولها إلى يقين وسلوك. وهذا هو دور القرآن.

المبحث الثاني: خلود الخطاب القرآني وصلاحيته لكل زمان

لقد أثبت القرآن الكريم عبر أربعة عشر قرناً قدرته على تجديد خطابه ومواكبة تحولات الإنسان دون أن يخرج عن جوهر مقاصده. يعود هذا الخلود إلى عوامل متعددة نعرضها بالتحليل:

العامل الأول: مخاطبة الفطرة الإنسانية الثابتة

القرآن يخاطب في الإنسان ما هو كوني وثابت، وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وقد أشار الشيخ الطوسي إلى أن أحكام القرآن مبنية على ما تدركه الفطرة السليمة، ولذلك لا تختص بزمان دون زمان (ينظر: الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ٤: ١٨٥).

وقد ورد في الحديث الشيعي عن الإمام الصادق عليه السلام: "إن القرآن حي لا يموت، والأحكام حية لا تموت" (ينظر: القمي، تفسير القمي، ١: ٧، بتصرف). وهذا النص يؤكد أن حياة القرآن مستمرة لأنه يخاطب حياة الإنسان المستمرة في كل عصر.

تحليل :الفطرة هي القاسم المشترك بين البشر في كل عصر، وهي التي تجعل الإنسان في القرن الحادي والعشرين يشعر بنفس الحاجة إلى الإله والأخلاق والقيم التي كان يشعر بها الإنسان في القرن الأول الهجري. وهذا هو سر الخلود: أن يخاطب الخطاب ما هو ثابت لا ما هو متغير.

العامل الثاني: كليات النص وقابليته للتفصيل

جاء القرآن بالكليات والمبادئ العامة، وترك للاجتهاد البشري الملتزم بضوابطه مهمة تفصيل الجزئيات المتغيرة. وقد بين هذا المعنى بدقة العلامة الطباطبائي: "القرآن يحتوي على أصول شرعية كلية لا تتغير، وأما الفروع فهي قابلة للتطبيق وفق متغيرات العصر إذا روعيت الروح العامة للتشريع" (الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٢: ١٠٩).

وهذا يعني أن الخلود لا يستلزم تجميد النص، بل يستلزم بقاء مبادئه قادرة على إنتاج أحكام جديدة عبر آليات الاجتهاد السليم التي رعتها المدرسة الإمامية عبر العصور.

العامل الثالث: سعة الدلالة (نظرية بطون القرآن)

تمتاز ألفاظ القرآن بسعة الدلالة وقابليتها لاستيعاب معاني جديدة دون خروج عنها، وهو ما يعبر عنه بـ "بطون القرآن". يذكر الشيخ العياشي في تفسيره عن الإمام الباقر عليه السلام: "ما من آية من كتاب الله إلا ولها ظاهر وباطن، وما من حرف إلا وله حد ومطلع" (العياشي، تفسير العياشي، ١: ١١).

وبفضل هذه السعة يظل القرآن قابلاً للإفادة في كل عصر، ويظل المفسرون قادرين على استخراج معان جديدة منه دون تحريف أو خروج عن روح النص.

العامل الرابع: الجمع بين الثبات والمرونة

القرآن ثابت في الأهداف الكبرى (التوحيد، النبوة، المعاد، العدل، القيم) ولكنه مرن في الوسائل والأحكام التفصيلية بما يحقق تلك الأهداف. وقد أشار السيد الخوئي إلى أن "القرآن كتاب الهدى الأبدي، لأن مقاصده عامة وشاملة لكل ما يحتاجه الإنسان في مسيرته" (الخوئي، البيان في تفسير القرآن، ص ١٠٢).

وهذه الخاصية تجعل القرآن قادراً على مواكبة التطورات الحضارية والعلمية دون أن يتخلى عن ثوابته. فالثبات في الأهداف والمرونة في الوسائل هو سر بقاء أي خطاب خالد.

المبحث الثالث: الإعجاز البياني في آية الكرسي

المطلب الأول: الإعجاز: المفهوم والأقسام

الإعجاز في القرآن هو ظهور عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن أو بسورة من مثله، مع التحدي الصريح. وينقسم الإعجاز إلى عدة أنواع: إعجاز بياني (لغوي وأسلوبي)، وإعجاز تشريعي (معنوي وقيمي)، وإعجاز علمي (يتعلق بالحقائق الكونية)، وإعجاز غيبي (الإخبار عن المغيبات).

وعند الشيعة الإمامية يتأكد البعد المعنوي للإعجاز. فقد ذكر الشيخ المفيد في أوائل المقالات أن إعجاز القرآن لا ينحصر في فصاحته وبلاغته، بل في اشتماله على المعارف العالية التي لا تصدر عن بشر (المفيد، أوائل المقالات، ص ١١٣). وأوضح ذلك السيد الخوئي بقوله: "القرآن معجز بذاته، سواء من جهة نظمه وبيانه، أو من جهة مضمونه العالي الذي لا يمكن أن يكون من عند غير الله" (الخوئي، البيان في تفسير القرآن، ص ٥١).

المطلب الثاني: آية الكرسي: موقعها ومنزلتها

المجلسي في بحار الأنوار عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه وصفها بأنها 'سيدة آي القرآن' (المجلسي، بحار الأنوار، ٩٢: ٢١٦). وعن أمير المؤمنين عليه السلام: 'آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله' (الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ١: ٣١٠)

وتتميز هذه الآية بتراكيبها الفريدة التي تجمع بين التوحيد الخالص، وإثبات الصفات الإلهية، ونفي المماثلة، مع البناء التدريجي المتصاعد. ونص الآية الكريم هو:

"اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ"

المطلب الثالث: تحليل آية الكرسي مقاطع

يمكن تقسيم آية الكرسي إلى تسعة مقاطع دلالية:

المقطع الأول :﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

إثبات التوحيد والألوهية، ووصفه تعالى بالحياة الذاتية التي لا بداية لها ولا نهاية، والقيومية التي تعني القيام على كل شيء وتدبيره وإبقاءه. يعلق العلامة الطباطبائي على ذلك: "الحياة والقيومية جامعتان لسائر الصفات الكمالية" (الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٢: ٢٧٥).

المقطع الثاني :﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾

تنزيهه تعالى عن العوارض التي تلحق المخلوقين، فالسنة (النعاس) والنوم من صفات البشر التي تدل على الضعف والحاجة، والله منزه عنها (ينظر: الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ٢: ٥٢٤).

المقطع الثالث :﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

إثبات الملك المطلق لله تعالى، فجميع ما في الكون مملوك له، ليس لأحد منهم شيء إلا بإذنه (ينظر: الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ١: ٢٦٧).

المقطع الرابع :﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾

رد الشفاعة المستقلة ونفي الشرك الخفي، بإثبات أن لا وساطة لأحد إلا بعد الإذن الإلهي.

المقطع الخامس :﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾

إثبات العلم المطلق المحيط لله تعالى، فهو يعلم ما كان قبل الخلق وما سيكون بعدهم، ويعلم أحوالهم كلها (ينظر: الحويزي، تفسير نور الثقلين، ١: ٣٤٥).

المقطع السادس :﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾

تحديد العلم البشري بالمشيئة الإلهية، فالإنسان لا يعلم إلا ما علّمه الله إياه، والله هو المطلق في العلم (ينظر: الخوئي، البيان في تفسير القرآن، ص ٢١٠).

المقطع السابع :﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

إشارة إلى سعة الملك والقدرة الإلهية. يرجح العلامة الطباطبائي أن "الكرسي هو العلم الإلهي المحيط بالأشياء، والعرش هو مقام التدبير الأعلى" (الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٢: ٢٨٣). ويروي تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام: "الكرسي هو العلم الذي وسع السماوات والأرض" (القمي، تفسير القمي، ١: ٨٦).

المقطع الثامن :﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾

نفي المشقة والكلال عن الباري تعالى، فهو لا يعييه حفظ السماوات والأرض ولا تدبيرهما، لأنه القوي المقتدر.

المقطع التاسع :﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾

الختم بصفات العلو والعظمة التي تجمع كل الكمالات. "العلي" أي العالي على كل شيء بالقهر والقدرة، "العظيم" أي الذي لا تحدّه الأوهام (ينظر: مكارم الشيرازي، تفسير الأمثل، ٢: ٤٢٠).

المطلب الرابع: مظاهر الإعجاز البياني في آية الكرسي

يتجلى الإعجاز البياني في آية الكرسي في عدة عناصر، وقد اعتمد التحليل على ما قرره علماء البلاغة، وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني في نظريته في النظم، التي تعد من أبرز الأسس العلمية لدراسة الإعجاز البلاغي للقرآن (ينظر: مطير، الأسس الفنية في نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني، ص ١٤٧–١٧١).

أولاً: الانتقال السلس بين الإثبات والنفي

يبدأ النص بـ "الله لا إله إلا هو" إثباتاً للألوهية، ثم ينتقل بسلاسة إلى "لا تأخذه سنة ولا نوم" نفياً للصفات الناقصة البشرية. هذا الانتظام البديع في الانتقال بين الإثبات والنفي يعجز عنه البشر. وقد أشار الطبرسي في مجمع البيان إلى أن هذا الأسلوب لا يصح إلا من عليم خبير (ينظر: الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ٢: ١٨٧).

ثانياً: استخدام أدوات الحصر

استخدمت الآية أدوات حصر متعددة، مثل "لا إله إلا هو" (أسلوب حصر بلا النافية والاستثناء)، و "من ذا الذي... إلا بإذنه" (الاستفهام الإنكاري بمعنى النفي والحصر). وهذا الأسلوب يكسب النص قوة في إثبات التفرد الإلهي. وقد لفت الفيض الكاشاني إلى أن هذا التكرار في أدوات الحصر "ليس عبثاً، بل لتأكيد المعاني وإزالة أي شبهة" (الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ١: ٢٦٨).

ثالثاً: بناء الجمل الشرطية والاستفهامية

قوله "من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه" هو أسلوب استفهام إنكاري يفيد نفي الشفاعة المستقلة. وهذا الأسلوب البلاغي أعلى في التقرير من النص المباشر، لأنه يشرك المتلقي في عملية الاستنتاج (ينظر: جوادي آملي، تفسير تسنيم، ٦: ٤١٢).

رابعاً: تناسب الفواصل الإيقاعية

فواصل الآية: (الحي القيوم، سنة ولا نوم، بإذنه، وما خلفهم، العلي العظيم) – كلها تتحد في الوزن الخفيف، مما يخلق إيقاعاً موسيقياً داخلياً يعين على التدبر والحفظ. وقد أشار مكارم الشيرازي إلى أن "هذا التناسب الصوتي مع المعنى يرفع الآية إلى مستوى فني لا يمكن تقليده" (مكارم الشيرازي، تفسير الأمثل، ٢: ٤٢١).

خامساً: البناء التصاعدي

تبدأ الآية بذكر الذات الإلهية (الله)، ثم تنتقل إلى الصفات (الحي القيوم)، ثم إلى نفي النقائص (لا تأخذه سنة ولا نوم)، ثم إلى الملك، ثم إلى الشفاعة، ثم إلى العلم، ثم إلى سعة الكرسي، وتختتم بالعلي العظيم. هذا البناء التصاعدي ينتقل بالذهن من صفة إلى أوسع منها، مما يحقق ترسيخاً متدرجاً للعقيدة في النفس. وقد أشار الطباطبائي إلى أن "هذا الترتيب بديع في تأثيره التربوي" (الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٢: ٢٨٠).

وهذه العناصر مجتمعة تثبت أن الإعجاز البياني في آية الكرسي ليس مجرد جمال لفظي، بل هو بناء لغوي وفني متكامل يستحيل على البشر الإتيان بمثله.

المبحث الرابع: الأثر النفسي للتدبر القرآني

المطلب الأول: الطمأنينة القلبية: المفهوم والمصدر

الطمأنينة في الاصطلاح القرآني هي سكون القلب وانشراح الصدر وزوال القلق والاضطراب. وقد جعلها الله تعالى مرهونة بذكره، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

يذكر الشيخ الطبرسي في مجمع البيان أن الطمأنينة ليست مجرد سكون القلب، بل هي "حالة من الثبات واليقين لا تتزعزع بتغير الأحوال" (الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ٦: ٤٣٤). وهذا يعني أن الطمأنينة القرآنيّة تتجاوز الشعور النفسي العابر إلى بناء شخصية ثابتة قادرة على مواجهة تقلبات الحياة دون أن تفقد توازنها.

المطلب الثاني: آليات بناء السكينة النفسية في القرآن

يُحدث التدبر القرآني أثراً نفسياً من خلال آليات متعددة:

أولاً: الذكر المنتظم والمواظبة

المواظبة على تلاوة القرآن وذكره تخلق في النفس عادة الحضور الإلهي، والحضور يملأ الفراغ الروحي الذي يعاني منه الإنسان المعاصر. وقد روى الكليني في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام: "القلوب أوعية، فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره" (الكليني، الكافي، ٢: ٤٤٠).

ثانياً: التدبر الواعي لا التلاوة الآلية

ليس المطلوب القراءة الآلية للقرآن، بل التدبر الذي يربط معاني الآيات بحياة الفرد. وقد أكد الفيض الكاشاني أن "ما انتفع بالقرآن من قرأه قراءة ألفاظ لا يفقه معناها، ولكن الذي ينتفع به من تدبر آياته وفهمها وعمل بها" (الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ١: ٥٥).

المطلب الثالث: مقارنة موجزة مع النظريات النفسية المعاصرة

تعترف مدارس علم النفس الحديث، خاصة المدرسة الإنسانية والوجودية، بوجود "حاجة إلى المعنى" كحاجة أساسية للإنسان. يرى فيكتور فرانكل أن "الفراغ الوجودي" هو سبب أكثر الاضطرابات النفسية في العصر الحديث. الإنسان عنده يبحث عن معنى لحياته، وعندما يفقد هذا المعنى يشعر بالقلق والفراغ.

ولكن الفرق بين المنظور القرآني وهذه النظريات هو أن القرآن لا يقدم فقط "حاجة إلى المعنى"، بل يقدم مصدراً متعالياً لهذا المعنى، وهو الله تعالى. وقد أشار العلامة الطباطبائي إلى أن "النفس الإنسانية تطلب سكينتها الحقيقية في من لا يتغير، وهو الله، وأما الأسباب المادية فهي مظنة القلق لا الطمأنينة" (الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١: ٣٦)

المطلب الرابع: شواهد من الحديث الشيعي حول أثر القرآن في الطمأنينة

روى الكليني في الكافي بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام: "إن هذا القرآن فيه شفاء من الأدواء، ونور مبين، وعصمة لمن تمسك به" (الكليني، الكافي، ٢: ٤٢٠). وفي حديث آخر عنه عليه السلام: "من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يرده الله عن الجنة شيئاً، وأدخل عليه من السكينة ما لا يوصف" (المجلسي، بحار الأنوار، ٩٢: ٢١٨).

وليس المقصود بالسكينة هنا مجرد شعور نفسي عابر، بل هي حالة وجودية تمكن الإنسان من مواجهة تقلبات الحياة. ويمكن القول إن القرآن يقدم برنامجاً متكاملاً للصحة النفسية قائماً على الإيمان واليقين والذكر والعمل الصالح.

الخاتمة:

لقد تبين من هذا البحث أن القرآن الكريم، رغم كونه خطاباً خالداً نزل قبل أربعة عشر قرناً، لا يزال المرجعية الأقدر على تجاوز فوضى الضجيج المعرفي المعاصر. وسر هذا الخلود لا يعود إلى جمود النص، بل إلى مرونته وقدرته على مخاطبة الفطرة الإنسانية الثابتة، واشتماله على كليات قابلة للتفصيل، وامتلاكه بطوناً من المعاني تتسع لكل زمان. وقد تجلى الإعجاز البياني في آية الكرسي نموذجاً فريداً على أن هذا النص ليس من صنع البشر. وفي النهاية، يبقى التدبر هو المفتاح الحقيقي لاستعادة الوظيفة الهدائية للقرآن، وهو الطريق إلى الطمأنينة القلبية التي يفقدها الإنسان في خضم هذا العصر.

النتائج :

١. القرآن مرجعية خالدة قادرة على تجاوز الضجيج المعرفي، وزمن الضجيج ليس شرطاً لخلوده بل سياق يُختبر فيه هذا الخلود.

٢. سر خلود القرآن يعود إلى أربعة عوامل :مخاطبة الفطرة الثابتة، كلياته القابلة للتفصيل، سعة دلالاته (بطون القرآن)، وجمعه بين الثبات في الأهداف والمرونة في الوسائل.

٣. آية الكرسي نموذج فريد للإعجاز البياني، تجلّى في: الانتقال السلس بين الإثبات والنفي، أدوات الحصر، الجمل الاستفهامية، تناسب الفواصل، والبناء التصاعدي.

٤. للتدبر القرآني أثر نفسي في بناء الطمأنينة يفوق العلاجات النفسية الوضعية، لأنه يعيد بناء الشخصية من الداخل عبر ربطها بالله تعالى.

التوصيات:

١. تطوير مناهج التربية الإسلامية لتشمل التدبر والتطبيق، لا التلاوة والحفظ فقط.

٢. تأسيس مشاريع بحثية في الإعجاز النفسي للقرآن وأثره على الصحة النفسية.

٣. توظيف وسائل الإعلام الحديثة لنشر ثقافة التدبر بأسلوب عصري جذاب.

٤. عقد دورات تدريبية للأئمة والخطباء لربط النص القرآني بقضايا المجتمع المعاصرة.

٥. إقامة مجالس تدبر منهجية في المساجد والأسر، هدفها الفهم والعمل لا الأجر فقط.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

١- الشريف الرضي، محمد بن الحسين بن موسى (ت ٤٠٦ هـ)، *نهج البلاغة*، جمع وتحقيق: صبحي الصالح، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ .

٢- الكليني، محمد بن يعقوب بن إسحاق (ت ٣٢٩ هـ)، *الكافي*، تحقيق: علي أكبر الغفاري، طهران، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ هـ .

٣- الصدوق، محمد بن علي بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ)، *من لا يحضره الفقيه*، تحقيق: علي أكبر الغفاري، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٣ هـ .

٤- المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي (ت ١١١١ هـ)، *بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار*، بيروت، مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ .

٥- الطباطبائي، محمد حسين (ت ١٤٠٢ هـ)، *الميزان في تفسير القرآن*، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى، ١٣٩٣ هـ .

٦- الطبرسي، الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨ هـ)، *مجمع البيان في تفسير القرآن*، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ .

٧- الطوسي، محمد بن الحسن (ت ٤٦٠ هـ)، *التبيان في تفسير القرآن*، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ .

٨- الفيض الكاشاني، محمد بن مرتضى (ت ١٠٩١ هـ)، *تفسير الصافي*، تحقيق: حسين الأعلمي، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ هـ .

٩- البحراني، هاشم بن سليمان (ت ١١٠٧ هـ)، *تفسير البرهان في تفسير القرآن*، قم، مؤسسة البعثة، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ .

١٠- القمي، علي بن إبراهيم (ت ٣٠٧ هـ)، *تفسير القمي*، تحقيق: طيب الموسوي الجزائري، قم، مؤسسة الإمام المهدي (عج)، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ .

١١- العياشي، محمد بن مسعود (ت ٣٢٠ هـ)، *تفسير العياشي*، تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، طهران، المكتبة العلمية الإسلامية، ١٣٨٠ هـ .

١٢- الحويزي، عبد علي بن جمعة (ت ١١١٢ هـ)، *تفسير نور الثقلين*، تحقيق: السيد هاشم الرسولي، قم، مطبعة الحكمة، الطبعة الرابعة، ١٤١٥ هـ .

١٣- مكارم الشيرازي، ناصر (معاصر)، *تفسير الأمثل*، قم، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ .

١٤- الخوئي، أبو القاسم الموسوي (ت ١٤١٣ هـ)، *البيان في تفسير القرآن*، بيروت، دار الزهراء، الطبعة الثالثة، ١٣٩٥ هـ .

١٥- جوادي آملي، عبد الله (معاصر)، *تفسير تسنيم*، قم، مركز نشر إسراء، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ .

١٦- المفيد، محمد بن محمد بن النعمان (ت ٤١٣ هـ)، *أوائل المقالات في المذاهب والمختارات*، تحقيق: إبراهيم الأنصاري، قم، المكتبة الداودية، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ .

١٧- شمس الدين، محمد مهدي (ت ١٤٢٢ هـ)، *المرجعية في الإسلام*، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ .

١٨- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١ هـ)، *دلائل الإعجاز*، تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت، دار الفكر .

١٩- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١ هـ)، *أسرار البلاغة*، بيروت، دار الكتب العلمية .

٢٠- مطير، أركان حسين (٢٠٢٠)، "الأسس الفنية في نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ)"، *مجلة بحوث اللغات*،